﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بَيانِ تَفاضُلِ الرُّسُلِ فيما بَيْنَهُمْ نَصًّا، حَسُنَتِ الإشارَةُ إلى أَفْضَلِ آيَةٍ في القُرْآنِ بذِكْرِها، إثْرَ الإشارَةِ إلى أَفْضَلِ رَسولٍ، والتَّفاضُلُ بَيْنَ الآياتِ بحَسَبِ المَعْنى والمَوْضوعِ، لا بحَسَبِ النَّظْمِ والبَلاغَةِ، وهِيَ "إبانَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ذِكْرُهُ للمُؤمِنينَ بهِ وبرَسولِهِ، عَمَّا جاءَتْ بهِ أَقْوالُ المُخْتَلِفينَ في البَيِّناتِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذينَ أَخْبَرَنا تَعالى ذِكْرُهُ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ، واخْتَلَفوا فيهِ، فاقْتَتَلوا فيهِ كُفْرًا بهِ مِنْ بَعْضٍ، وإيمانًا بهِ مِنْ بَعْضٍ"[1].

و"لَمَّا ذَكَرَ فيمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِ الأَحْكامِ ومِنْ عِلْمِ القَصَصِ ما رَآهُ مَصْلَحَةً، ذَكَرَ الآنَ ما يَتَعَلَّقُ بعِلْمِ التَّوْحيدِ"[2]، "فبَعْدَ أَنْ أَمَرَنا تَعالى بالإنْفاقِ في سَبيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مالٌ فيهِ ولا كَسْبٌ، ولا يُنْجي مِنْ عِقابِهِ فيهِ شَفاعَةٌ ولا فِداءٌ، انْتَقَلَ كَدَأْبِ القُرْآنِ إلى تَقْريرِ أُصولِ التَّوْحيدِ والتَّنْزيهِ الَّتي تُشْعِرُ مُتَدَبِّرَها بعَظيمِ سُلْطانِهِ تَعالى، ووُجوبِ الشُّكْرِ لَهُ، والإذْعانِ لأَمْرِهِ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدودِهِ، وبَذْلِ المالِ في سَبيلِهِ، وتَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الغُرورِ والاتِّكالِ عَلى الشَّفاعاتِ والمُكَفِّراتِ الَّتي جَرَّأَتِ النَّاسَ عَلى نَبْذِ كِتابِ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ"[3]. "وأُودِعَتْ هَذِهِ الآيَةُ العَظيمَةُ هُنا؛ لأَنَّها كالبَرْزَخِ بَيْنَ الأَغْراضِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/386.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/20، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17، والآلوسي، روح المعاني: 2/12.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحَيُّ﴾: (حي) الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، فأمَّا الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًّا؛ لأن به حياة الأرض[1]، فالحيُّ هُوَالذي له الحياة الكاملة - المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك- التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص، أو سِنَة، أو نوم، أو مرض، "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُهُ المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2].

2) ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: قوام الأمر بالكسر: نظامه وعماده، والقيوم: اسم من أسماء الله تَعَالَى[3]، وهو عَلى وَزْنِ فَيْعول: اجتَمَعَتْ ياءٌ ووَاوٌ، سُبِقَتْ إحداهُما بالسُّكون؛ فقُلِبَتْ وأُدغِمَت[4]، "هوَ القائمُ الدَّائِمُ بِلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيام، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشَّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[5].

ومعناه: الدائم الذي لا يزول، القائم بنفسه، فاستغنى عن جميع مخلوقاته، القائم بغيره؛ فجميع الموجودات مفتقرة إليه في الإيجاد والإعداد والإمداد، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم[6].

3) ﴿سِنَةٌ﴾: "الوَسَنُ: النُّعاسُ، وكَذا السِّنَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانُ"[7]، والوَسَنُ والسِّنَةُ: الغَفْلَةُ والغَفْوَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانُ ووَسِنٌ؛ يُقالُ لتَصَوُّرِ النَّوْمِ مِنْهُ[8]، وهُوَ مِنْ مَبادِئِ النَّوْمِ[9]، والمُرادُ بالسِّنَةِ في الآيَةِ ما يَعْتَري الحَيَّ مِنَ الغَفْوَةِ اليَسيرَةِ التي تُؤَثِّرُ فيه تَأْثيرًا يَسيرًا، وهو منفيٌّ عن الله تعالى.

4) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾: الحاءُ والواوُ والطَّاءُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهُوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بالشَّيْءِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حي).
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80، وينظر السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 166.
(3) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(4) تفسير ابن عرفة: 2/772.
(5) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(6) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 121.
(7) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(8) الراغب، المفردات: (وسن).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (وسن).

فالحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا[1]، وهِيَ تَدُلُّ عَلى الإِحْرازِ والبُلوغِ، "فكُلُّ مَنْ أَحْرَزَ شَيْئًا كُلَّه، وبَلَغَ عِلْمُه أَقْصاه فقَدْ أَحاطَ بِه"[2]، وعَلى التَّمَكُّنِ والحِفْظِ، و"حُطْتُ الرَّجُلَ أَحوطُهُ حَوْطًا: إِذا حَفِظْتُه"[3]، وعَلى الشُّمولِ، "فالإِحاطَةُ تَقْتَضي الحُفوفَ بالشَّيْءِ مِنْ جَميعِ جِهاتِه، والاِشْتِمالَ عَلَيْه"[4].

5) ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسيُّ في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى الأَصْلِ، فإِنَّ "العَرَبَ تُسَمِّي أَصلَ كُلِّ شَيْءٍ: الكُرْسَ، يُقالُ مِنْهُ: فُلانٌ كَريمُ الكُرْسِ، أَيْ: كَريمُ الأَصْلِ"[5]، "ومادَّةُ (كرس) تَدورُ عَلى القُوَّةِ والاِجْتِماعِ والعَظَمَة"[6].

والكُرْسِيُّ قيلَ فيهِ: إِنَّهُ جِسْمٌ عَظيمٌ يَسَعُ السَّماواتِ والأَرْضَ، وقيلَ: إِنَّه العَرْشِ، وقيلَ: السُّلْطانُ والمُلْكُ، وقيلَ: العِلْمُ[7]، وقالَ القَفَّالُ: "إِنَّ المَقْصودَ مِنْ هَذا الكَلامِ تَصْويرُ عَظَمَةِ اللَّهِ وكِبْرِيائِه"[8].

والصواب أنَّ الكرسيَّ هو موضع قدَمي الله ﷻ، وممَّن قال بهذا القول أبو موسى الأشعري، وابن عباس ﷺ، والسُّدي، وأبو عبيد القاسم بن سلَّام، والدارمي، والأزهري، وأكثر أهل العلم، وهو قول أهل السنة[9].

6) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: الأَوْدُ: في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى المَيْلِ والاِنْحِناءِ[10]، وسَبَبُهُ الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، وقَدْ رَدَّهُ ابنُ فارِسٍ إِلى هَذا حينَ قالَ: "وإِلى هَذا يَرْجِعُ آدَني

(1) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(2) الخليل، العين: (حوط).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حوط).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: (حوط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/402.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 4/33.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/402، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(9) عبد الله بن أحمد بن حنبل، كتاب السنة: حديث رقم: (588): 1/303، وابن جرير، جامع البيان: 4/538، والبيهقي، الأسماء والصفات، حديث رقم: (859): 2/296، وقال ابن حجر في فتح الباري: 9/697: "بإسناد صحيح"، وقال الألباني في مختصر العلو، رقم: (75)، ص: 124: "إسناده موقوف صحيح . . رجاله كلهم ثقات معروفون".
والدارقطني، كتاب الصفات، حديث رقم: (57)، ص: 68، والالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: حديث رقم: (928): 2/581، والدارمي، نقض الدارمي على بشر المريسي: 1/414، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرس): 10/32، والذهبي، سير أعلام النبلاء: 10/505، وابن أبي زَمَنِين، أصول السنة: ص: 96.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

الشَّيْءُ يَؤودُني، كأَنَّهُ ثَقُلَ عَلَيْكَ حَتَّى ثَناكَ وعَطَفَكَ"[1]، وَيَظْهَرُ من اسْتِعْمالِ العَرَبِ أَنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ، فمِن ذَلِكَ "المؤِيد بِوَزْن مُعْبِدٍ: الأَمْرُ العَظِيم"[2]، ومِنْهُ المَآوِدُ: الدَّواهِي[3]، ومَعْناهُ في الآيَةِ: لا يَمْنَعُهُ ولا يَشُقُّ عَلَيْهِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية الكريمة أعظمُ آيات القرآن وأفضلها وأجلها، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردًا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، ولَمَّا اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلى نُعوتِ جَلالِهِ وصِفاتِ كِبْرِيائِهِ سُبْحانَهُ، كانَتْ بالِغَةً في الشَّرَفِ إلى أَقْصى الغاياتِ وأَبْلَغِ النِّهاياتِ[4]، "وفُضِّلَتْ هَذا التَّفْضيلَ لِما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحيدِ اللَّهِ وتَعْظيمِهِ، وذِكْرِ صِفاتِهِ العُلا، ولا مَذْكُورَ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ، فَذِكْرُهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ ذِكْرٍ"[5]، ففي آية الكرسي خمسة من أسماء الله ﷻ، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة.

ابْتَدَأَتِ الآيَةُ باسْمِ اللَّهِ تَعالى ليَكونَ ما بَعْدَهُ تَعْريفًا به، وإِرْسالًا لِما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ، وذَكَرَت خمسة أَسْماءٍ لِلَّه، أعظمها الاسمان الجليلان: الحَيُّ القَيُّومُ، فالحَيُّ هُوَ الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، والقَيُّومُ هُوَ المُتَصَرِّفُ في تَدْبيرِ خَلْقِهِ عَلى أَفْضَلِ نِظامٍ، وأَكَّدَ ذَلِكَ بأَنْ نَفى عَنْهُ ما يَعْتَري آحادَ البَشَرِ مِن النُّعاس والنَّوْم، وأَثْبَتَ لَهُ مِلْكِيَّةَ المَوْجوداتِ كُلِّهَا، فهُو الحَقيقُ بأَنْ يَأْمُرَ ويَمْنَعَ، وهُوَ الَّذي يُحيطُ عِلْمُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، ولا يَطَّلِعُ أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو موضع قدمي الرب ﷻ ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، ولا يُثْقِلُه حِفْظُ السَّماواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّهُ العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

وسِرُّ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الآيَةِ بالكُرْسِيِّ؛ ما يُشيرُ إِلَيْهِ الكُرْسِيُّ مِنَ التَّمَكُّنِ والعَظَمَةِ والعِلْمِ

(1) ابن فارس، المقاييس: 1/155، ويُنظر: الراغب، تفسير الراغب: 1/526، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/24.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (أود).
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5، بتصرف.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 2/607.

والسُّلْطانِ، وهِيَ الَّتي تُصَوِّرُ عَظَمَتَه مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعالى، فكَذلِكَ هَذِهِ الآيَةُ تُمَثِّلُ عَظَمَتَهُ مِنْ آيِ القُرْآنِ، وهِيَ إشارَةٌ بَدِيعَةٌ للتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللَّهِ وكَلامِهِ، في اختيارِه لأَعْظَمِ آياتِه، اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقاتِه.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ الابْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالَةِ:

لَفْظُ الجَلالَةِ أَعْرَفُ المَعارِفِ، وابْتُدِئَ بِهِ تَعْظِيمًا وتَفْخِيمًا وتَعْرِيفًا، وتَوْطِئَةً لِما سَيُأْتي مِنَ النَّظْمِ الكَرِيمِ

ابْتَدَأَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِلَفْظِ الجَلالَةِ، "وجِيءَ باسْمِ الذَّاتِ هُنَا لأَنَّهُ طَرِيقٌ في الدَّلالَةِ عَلى المُسَمَّى المُنْفَرِدِ بِهَذا الاسْمِ، فإنَّ العَلَمَ أَعْرَفُ المَعارِفِ؛ لعَدَمِ احْتِياجِهِ في الدَّلالَةِ عَلى مُسَمَّاهُ إلى قَرِينَةٍ أَوْ مَعُونَةٍ"[1]، والابْتِداءُ بلفْظِ الجَلالَةِ يورِثُ المَهابَةَ في النُّفوسِ، والفَخامَةَ في الصُّدورِ، وهُو تَوْطِئَةٌ مُبارَكَةٌ لِما سَيُبْنَى عَلَيهِ مِنَ النَّظْمِ الكَرِيمِ والمَعْنَى السّلِيمِ.

بَلاغَةُ الإخْبارِ بجُمْلَةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في القُرْآنِ الكَرِيمِ:

تَقْرِيرُ عَظَمَةِ التَّوْحِيدِ بالجُمْلَةِ النَّاصَّةِ عَلى ذَلِكَ اسْتِثْناءً بَعْدَ نَفْيٍ

لَفْظُ الجَلالَةِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بذاتِها، مُكْتَنِزَةٌ بِجَلالِها، تَكَرَّرَتْ في القُرآنِ تِسْعَ مَرَّاتٍ، وهِيَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النِّساء: 87]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التَّوْبَة: 129]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طَه: 8]، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طَه: 14]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٦﴾ [النَّمل: 26]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القَصَص: 70]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾ [التَّغَابُن: 13].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

وجَميعُ هَذِهِ الآياتِ جاءَتْ في سِياقِ العَقيدَةِ وتَقْريرِها، وهَذا يَدُلُّ عَلى عَظَمَةِ هَذِهِ الجُمْلَةِ، وأَنَّها بِمَكانَةٍ لا تَحْظَى بها جُمْلَةٌ أُخْرى؛ لأَنَّها تَعْريفٌ بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى، بالجُمْلَةِ النَّاصَّةِ عَلى ذَلِك، حَصْرًا بالنَّفْيِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وبالاسْتِثْناءِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾، وأَصْلُهَا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وقُدِّمَ لَفْظُ الجَلالَةِ تَعْظيمًا وتَفْخيمًا، وليَكونَ مُسْنَدًا إِلَيْهِ التَّوْحيدُ تَعْريفًا، فكَأَنَّهُ قيلَ: إِذا أَرَدتَ أَنْ تَعْرِفَ اللهَ فاعْلَمْ أَنَّهُ واحِدٌ.

بلاغة نفي الجنس، والاستثناء في مطلع الآية:

أفـادتْ (لا) نفيَ كلِّ أنواعِ الآلهة المعبودة، وأفـادتْ (إلا) استثناءَهُ تعالى من النَّفي العامّ

قُصِدَ إلى التعبير بـ (لا) النافية للجنس في قوله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لتحقّق استغراق النفي لجميع الآلهة المعبودة من دون الله، وشموله كلّ أنواعها، وأُرْدِف بالاستثناء لدفع توهّم دخوله - جل في علاه - ضمن النفي العام.

دَلالَةُ اقْتِرانِ اسْمِ الحَيِّ بالقَيُّومِ:

علّة الاقتران مُعامَلَةُ الاسْمَيْنِ مُعامَلَةَ التَّرْكيبِ، ودَلالَتُهُما عَلى سائِرِ الأَسْماءِ

اقْتَرَنَ اسْمُ الحَيِّ بالقَيُّومِ في ثَلاثِ آياتٍ، هَذِهِ إِحْداها، وفي مَطْلَعِ سورَةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، وفي سُورَةِ طه ﴿*وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]، ولَمْ يَرِدْ في القُرْآنِ اسْمُ القَيُّومِ إِلَّا مُقْتَرِنًا باسْمِ الحَيِّ، فاقْتِرانُ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ أَشْبَهُ ما يَكونُ تَرْكيبًا في الاسْتِعْمالِ القُرْآنِيِّ، فهُمَا "يَدُلَّانِ عَلى سائِرِ الأَسْماءِ الحُسْنى مُطابَقةً وتَضَمُّنًا ولُزومًا"[1].

وجْهُ الاقتران بين الاسمين تَنْزيلُ الصِّفَةِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ

وأَفادَ الاسْمانِ مَعْنى التَّعْليلِ، فاللهُ مُسْتَحِقٌّ لإِفْرادِهِ بالتَّوْحيدِ؛ لأَنَّهُ الحَيُّ القَيُّومُ، فنُزِّلَتِ الصِّفَةُ مِنَ المَوْصوفِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ مِنَ المَعْلولِ، "فمِنْ ضَرورَةِ اخْتِصاصِ ذَيْنِكَ الوَصْفَيْنِ بِهِ تَعالى، اخْتِصاصُ اسْتِحْقاقِ المَعْبودِيَّةِ بِهِ تَعالى؛ لاسْتِحالَةِ تَحَقُّقِهِ بدونِهما"[2]، و"لا سَبيلَ إِلى الإِحاطَةِ بشَيْءٍ مِنَ المَسائِلِ المُتَعَلِّقَةِ بالعِلْمِ الإِلَهِيِّ إِلَّا

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 110.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/3.

بِوَاسِطَةِ كَوْنِهِ تَعالى حَيًّا قَيُّومًا"[1]، فالحَيُّ هُوَ "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُه المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2]، و"القَيُّومُ: هوَ القائمُ الدَّائمُ بلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيامِ، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشَّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[3]، "وَمِنْ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ تَتَشَعَّبُ جَميعُ المَسائِلِ المُعْتَبَرَةِ في عِلْمِ التَّوْحيدِ"[4].

إِعْرابُ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ عَلى الوَصْفِ:

وَجاهَةُ إِعْرابِ (الحيّ) وَصْفًا لِلَفْظِ الجَلالَةِ بَيانُ أَهَمِيَّةِ الوَحْدانِيَّةِ، واسْتِقْلالُ الجُمْلَةِ

ومِنْ أَوْجَهِ الأَعاريبِ[5] أَنْ يُعْرَبَ الحَيُّ صِفَةً للَفظِ الجَلالَةِ، وعَلَيْهِ يَكونُ غَرَضُ الفَصْلِ بَيْنَ الصِّفَةِ ومَوْصوفِها بالخَبَرِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانَ أَهميَّةِ الوَحْدانيَّةِ في اعْتِقادِ المُخاطَبِ، وأَنَّها مَدارُ قَبولِ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ، وإبرازَ اقْترانِ الحَيِّ بالقَيُّومِ نَعْتَيْنِ لَهُ، فإنَّ اقْترانَ الصِّفَةِ بالصِّفَةِ تَلازُمًا يَقومُ مَقامَ التَّرْكيبِ الواحِدِ، وهَذا الإِعْرابُ يَجْعَلُ الجُمْلَةَ واحِدَةً مُسْتَقِلَّةً، وهُو أَشَدُّ اتِّساقًا، وأَقوى دَلالَةً، وأَوْضَحُ مَعْنًى، قالَ صاحِبُ البَحْرِ المُحيطِ: "وأَجْوَدُها الوَصْفُ، ويَدُلُّ عَلَيْهِ قِراءَةُ مَنْ قَرَأَ: (الْحَيَّ الْقَيُّومَ) بالنَّصْبِ، فقَطَعَ عَلى إِضْمارِ: أَمْدَحُ، فلَوْ لَمْ يَكُنْ وَصْفًا ما جازَ فيهِ القَطْعُ"[6].

وهُوَ المَفْهومُ مِنْ كَلامِ (الكَشَّافِ) حينَ قالَ في بَيانِ تَرَتُّبِ الجُمَلِ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، وأَنَّ البَيانَ مُتَّحِدٌ بالمُبَيَّنِ: "فالأُولى بَيانٌ لِقيامِهِ بتَدْبيرِ الخَلْقِ، وكَونِهِ مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، غَيْرَ ساهٍ عَنْهُ"[7]، فجَعَلَ قَوْلَه تَعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ بَيانًا لِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/7.
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80.
(3) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/6.
(5) في إِعْرابِ الحَيِّ مَجْموعَةُ أَعاريبَ، فقيلَ: إِنَّهُ خَبَرُ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ هُوَ، أَوْ مِنَ "اللَّهُ" تَعالى، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، أَيْ: هُوَ، أَوْ مُبْتَدَأٌ والخَبَرُ: لا تَأْخُذُهُ. يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/608-609.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/609، ويُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(7) الزمخشري، الكشاف: 1/302.

﴿إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فمَعْنى الوَصْفِ صَريحٌ في اقْترانِ المُفْرَدَتَيْنِ، فصيحٌ في تَرْتيبِ الجُمْلَتَيْنِ.

سِرُّ تَأْكيدِ صِفَةِ القَيُّومِ دونَ صِفَةِ الحَيِّ:

نَـفْـيُ الأَدْنى يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الأَعْلى، وهَذا مِنْ بَديعِ الإيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ

جُمْلَةُ ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ بَيانٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، مُقَرِّرَةٌ لِمَضْمونِها، فهِيَ "كالدَّليلِ عَلى كَوْنِهِ حَيًّا قَيُّومًا"[1]، ولِذَلِكَ فُصِلَتْ ولَمْ تُعْطَفْ، ومَعْنى بَيانِها أَنَّها جاءَتْ نافِيَةً لأَيِّ مَعْنًى يَخْدِشُ صِفَتَيِ الحَياةِ والقَيُّوميَّةِ عَلى طَريقِ المُقابَلَةِ، فهُوَ "لا يَغْفُلُ عَنْ تَدْبيرِ الخَلْقِ"[2]، وجَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذِهِ الجُمْلَةَ تَأْكيدًا لِصِفَةِ القَيُّومِ؛ "لأَنَّ مَنْ جازَ عَلَيْهِ ذَلِكَ اسْتَحالَ أَنْ يَكونَ قَيُّومًا"[3].

فالجُمْلَةُ بَيانٌ لِلْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا، وتَأْكيدٌ لِصِفَةِ القَيُّومِ، وهَذا مِنْ أَبْلَغِ ما يَكونُ في ارْتِباطِ الجُمَلِ، أَنْ تَجْمَعَ وَظيفَتَيْنِ؛ بَيانًا لِلْكُلِّ، وتَأْكيدًا لِلْجُزْءِ، والمُقابَلَةُ بَيْنَ القَيُّومِ والنَّوْمِ تُقابِلُ العَدَمَ والمَلَكَةَ، فالنَّوْمُ كَيْفِيَّةٌ عَدَمِيَّةٌ، وهِيَ عَدَمُ القِيامِ، فإِنْ قالَ قائِلٌ: لِماذا لَمْ يَذْكُرْ مُقابِلَ الحَياةِ وهُوَ المَوْتُ؟! كما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]؛ والجَوابُ: أَنَّهُ جاءَ عَلى أُسْلوبِ نَفْيِ الأَعْلى بالأَدْنى، فإِذا كانَ النَّوْمُ مُنَزَّهًا عَنْهُ سُبْحانَهُ، فَكَيْفَ بِما هُوَ أَعْلى مِنَ النَّوْمِ؟! وعَلَيْهِ فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَكَّدَتْ صِفَةَ القَيُّومِ مُقابَلَةً لَفْظِيَّةً، وصِفَةَ الحَيِّ التِزامًا، نَفْيًا لِلأَعْلى بِنَفْيِ الأَدْنى، وهُوَ ما يُفْهِمُهُ كَلامُ البَيْضاوِيِّ: "والجُمْلَةُ تَأْكيدٌ لِكَوْنِهِ حَيًّا قَيُّومًا"[4]، وهَذا مِنْ بَديعِ الإيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ.

تَـدَرُّجٌ مِـنْ نَفْيِ الأَدْنـى، إِلـى نَفْيِ الأَعْـلى، لا لِتَلازُمِهِما، بَلْ لِنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا

نُكْتَةُ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النَّعاسِ:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في بَيانِ نُكْتَةِ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ، فمِنْهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/8.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/300.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

مَنْ قالَ: إنَّها مِنْ بابِ مُراعاةِ التَّرْتيبِ الوُجودِيِّ، فلِتَقَدُّمِها عَلى النَّوْمِ في الخارِجِ قُدِّمَتْ عَلَيْهِ في اللَّفْظِ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّهُ عَلى طَريقِ التَّتْميمِ، وهُوَ أَبْلَغُ لِما فيهِ مِنَ التَّأْكيدِ، إذْ نَفْيُ السِّنَةِ يَقْتَضي نَفْيَ النَّوْمِ ضِمْنًا، فإذا نَفى ثانِيًا كانَ أَبْلَغَ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ تَأْخيرَ النَّوْمِ رِعايَةٌ لِلْفَواصِلِ[1]، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: التَّرْتيبُ عَلى مُقْتَضى الظَّاهِرِ، إذْ يَكونُ المَعْنى: لا تَغْلِبُه السِّنَةُ، ولا النَّوْمُ الَّذي هُوَ أَكْثَرُ غَلَبَةً مِنْها[2].

وعِنْدَ تَدْقيقِ النَّظَرِ فيما قيلَ، نَجِدُ أَنَّ المُفَسِّرينَ حَصَروا السِّنَةَ فيما هُوَ قَبْلَ النَّوْمِ، باعْتِبارِ الغالِبِ، ومِنْ هُنَا نَشَأَ الإشْكالُ، ولأَجْلِهِ اعْتُسِفَ الجَوابُ، والصَّحيحُ أَنَّ تَعَلُّقَ السِّنَةِ بالنَّوْمِ لَيْسَ تَعَلُّقًا لُزوميًّا، فقَدْ تَكونُ السِّنَةُ ولا يُتْبِعُها نَوْمٌ، وقَدْ يَهْجُمُ النَّوْمُ دونَ مُقَدِّماتِهِ، والسِّنَةُ في سِياقِ الآيَةِ لا يَصِحُّ أَنْ تَكونَ مُقَدِّمَةَ النَّوْمِ، إذْ لا مَعْنى لنَفْيِها قَبْلَ نَفْيِهِ؛ لأَنَّها داخِلَةٌ فيهِ ضِمْنًا، ولا يُرادُ هَذا المَعْنى، بَلِ المُرادُ هُوَ نَفْيُ حالَتَيْنِ؛ الأُولى: ما يُصيبُ الإنْسانَ حالَ اليَقْظَةِ مِنَ النُّعاسِ الطَّفيفِ الَّذي يُؤَثِّرُ تَأْثيرًا يَسيرًا عَلى تَدْبيرِهِ، والثَّانِيَةُ: ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنَ الثِّقَلِ العَميقِ في النَّوْمِ الَّذي يُفْقِدُه القُدْرَةَ التَّامَّةَ عَلى التَّدْبيرِ، إذَنْ هُوَ نَفْيٌ لحالَتَيْنِ؛ حالَةِ التَّأْثيرِ اليَسيرِ عَلى التَّدْبيرِ، وحالَةِ التَّأْثيرِ التَّامِّ عَلى التَّدْبيرِ، فهُوَ تَدَرُّجٌ مِنْ نَفْيِ الأَدْنى، إلى نَفْيِ الأَعْلى، لا لتَلازُمِهما، بَلْ لنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا، وعَلَيْهِ فلا تَلازُمَ بَيْنَهُما في هَذا السِّياقِ.

وَهَذا مَفْهومُ كَلامِ الماتُريديّ حينَ قالَ: "والنَّوْمُ والسِّنَةُ حالانِ تَدُلَّانِ عَلى غَفْلَةِ مَنْ حَلَّا بِهِ، وعلَى حاجَتِهِ إلى ما فيهِ راحَتُهُ، وعَلى عَجْزِهِ، إذْ هُما يَغْلبانِ ويَقْهَرانِ، فوَصَفَ الرَّبُّ نَفْسَهُ بما يَعْلو عَنِ الَّذي دَلَّا عَلَيْهِ مِنَ الوُجوهِ"[3]. وقالَ ابنُ عَرَفَةَ: "إنَّا نَجِدُ مَنْ يُدافِعُ النَّومَ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ؛ لأَنَّهُ مَهْما تَأْخُذُهُ السِّنةُ يُدافِعُها ويَغلِبُها حَتَّى يَأْتِيَهُ النَّوْمُ غَلَبَةً فيَنام؛ فما يَلْزَمُ مِن عَدَمِ السِّنَةِ عَدَمُ النَّوْمِ"[4].

وقالَ ابنُ عاشُور: "ونَفْيُ السِّنَةِ عَنِ اللَّهِ تَعالى لا يُغْني عَنْ نَفْيِ النَّوْمِ عَنْهُ؛ لأَنَّ مِنَ الأَحْياءِ مَنْ لا تَعْتَريهِ السِّنَةُ، فإذا نامَ نامَ عَميقًا، ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ السِّنَةُ في غَيْرِ

(1) هَذا عَلى رَأْيِ الدَّاني، بأَنَّ الفاصِلَةَ كَلِمَةُ آخِرِ الجُمْلَةِ. يُنظر: الزركشي، البرهان: 1/53.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/9-10، ورضا، تفسير المنار: 3/26، والمراغي، تفسير المراغي: 3/12.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/235.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/772.

وَقْتِ النَّوْمِ غَلَبَةً . . والمَقْصودُ أَنَّ اللَّهَ لا يَحْجُبُ عِلْمَهُ شَيْءٌ حَجْبًا ضَعيفًا ولا طَويلًا، ولا غَلَبَةً ولا اكْتِسابًا، فلا حاجَةَ إلى ما تَطَلَّبَهُ الفَخْرُ والبَيْضاوِيُّ مِنْ أَنَّ تَقْديمَ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ مُراعًى فِيهِ تَرْتيبُ الوُجودِ، وأَنَّ ذِكْرَ النَّوْمِ مِنْ قَبيلِ الاحْتِراسِ"[1].

فائدةُ تَكْرارِ (لَا):

فـائـدة الـتـكـرار دفعُ توهُّم نفي السِّنَةِ والنَّوم بقيد الاجتماع، والتَّنْصيصُ عَلى إحاطَةِ النَّفْيِ وشُمولِه كلًّا منهما

وتَبْرُزُ لتَكْرارِ: (لا)، في قَوْلِه: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ فائِدَتان؛ الأُولى: "انْتِفاؤُهُما عَلى كُلِّ حالٍ، إِذْ لَوْ أُسْقِطَتْ (لَا)؛ لاحتَمَلَ انْتِفاؤُهُما بِقَيْدِ الاجْتِماعِ، تَقولُ: ما قامَ زَيْدٌ وعَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما، ولا يُقالُ: ما قامَ زَيْدٌ ولا عَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما"[2]، والثَّانِيَةُ: التَّنْصيصُ عَلى الإحاطَةِ وشُمولِ النَّفْيِ لكُلٍّ مِنْهُما، كما في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [التوبة: 121][3].

عِلَّةُ العدول إلى الفَصْلِ:

وجْـهُ الـفـصـل إفـادَةُ البَيانِ، والـتَّـقْـريـر، والـتَّـعْـلـيـل، فكانَتْ كالدَّليلِ عَـلـى الـجُـمْـلَـةِ السَّابِقَةِ

فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عَمَّا قَبْلَها لأَنَّها وَقَعَتْ مِنْها مَوْقِعَ البَيانِ، وهِيَ "كالدَّليلِ عَلى أَنَّه لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ"[4]، فهِيَ مُقَرِّرَةٌ "لانْفرادِهِ بالإلَهِيَّةِ إِذْ جَميعُ المَوْجوداتِ مَخْلوقاتُهُ، ومُعَلِّلَةٌ لاتِّصافِهِ بالقَيُّوميَّةِ؛ لأَنَّ مَنْ كانَتْ جَميعُ المَوْجوداتِ مِلْكًا لَهُ فهُوَ حَقيقٌ بأَنْ يَكونَ قَيُّومَها وأَلَّا يُهْمِلَها"[5].

بيانُ تَقْديمُ المُسْنَدِ:

وجـه الـتـقـديـم ثُـبُـوتُ مِـلْـكِـهِ تـعـالـى لـعُـمـومِ المَـخْـلـوقـاتِ، وإبْـطـالُ عَـقـائِـدِ أَهْـلِ الـشِّـرْكِ بِـخـصـوصِـيَّـةِ القَصْرِ

وفائِدَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ في جُمْلَةُ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المؤدّي معنى: له لا لِغَيْرِهِ؛ ثُبُوتُ مِلْكِهِ لعُمومِ المَخْلوقاتِ، حَيْثُ لا يَشِذُّ عَنْ مِلْكِهِ مَوْجودٌ فحَصَلَ مَعْنَى الحَصْرِ؛ لإفادَةِ الرَّدِّ عَلى أَصْنافِ المُشْرِكينَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/19-20.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/248، والآلوسي، روح المعاني: 2/9-10.
(4) تفسير ابن عرفة: 2/725.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20، بتصرف يسير.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.

سرُّ تكرار (ما) وإيثارُها دون (مَنْ):

تـكـرار مـا للتوكيد، وإيثار (مـا) إجـراءٌ للغالِبِ مَجْرى الـكُـلِّ؛ لكون غالب المخلوقات غير عاقلة

وكَرَّرَ ﴿مَا﴾ الَّتي للعُمومِ لغرض التَّوْكيدِ، و" استغراق أمكنة الموجودات، فقد دلّت الجملة على عموم الموجودات بالموصول وصلته"[1]. وآثَرَتِ الآيَةُ ذِكْرَ ﴿مَا﴾ الَّتي تُسْتَعْمَلُ لغَيْرِ العاقِلِ، دونَ (مَن) الَّتي هِيَ للعاقِلِ؛ لأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الأَوَّلُ: أنَّ الغالِبَ ما لا يَعْقِلُ، فأَجْرى الغالِبَ مَجْرى الكُلِّ، وأَمَّا الثَّاني: فأُسْنِدَتِ المَخْلُوقاتُ إلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إنَّهَا مَخْلوقَةٌ، وهِيَ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ غَيْرُ عاقِلَةٍ، ورسَّخ هذا المعنى لام للملك[2].

نُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ دونَ الظَّرْفِ:

مَـقْـصـودُ الـذِّكـر نَـفْـيُ الإلَـهِـيّـةِ عَـنْ غَـيْـرِهِ تَعالى بإثْباتِ أَنَّه مالِكُ الـسَّـمـاواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ

ونُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ وهُوَ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دونَ ذِكْرِ الظَّرْفِ الَّذي هُوَ (السَّماوات والأَرْض)؛ لأَنَّ المَقْصودَ نَفْيُ الإلَهِيّةِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعالى بإثْباتِ أَنَّه مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ، وأَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، مِمَّا يَعْبُدُه النّاسُ في السَّماواتِ والأَرْضِ؛ كالشَّمْسِ، والقَمَرِ، والأَصْنامِ، وبَعْضِ بَني آدَمَ[3]، "فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَفادَتْ تَعْليمَ التَّوْحيدِ بِعُمومِها، وأَفادَتْ إبْطالَ عَقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ بخصوصِيَّةِ القَصْرِ، وهَذا بَلاغَةٌ مُعْجِزَةٌ"[4].

هَـذِهِ الآيَـةُ جاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بمَفْهومِها العامّ، وآيَـةُ المـائِـدَةِ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عليه السلام

بيانُ التشابه اللفظي:

ذَكَرَ البَيْضاويُّ[5] أنّ قوله تعالى ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120]؛ وهو وصفٌ محلُّ نظرٍ؛ لأَنَّ كُلَّ آيَةٍ جاءَتْ في سِياقٍ يَخُصُّها، ونَظْمُ الكَلامِ يَتْبَعُ المَعْنى، وغايَةُ النَّظْمِ بَيانُ مُرادِ المُتَكَلِّمِ، والكَشْفُ عَنْ دَقائِقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/10-11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

أَسْرارِ المَعاني المُرادَةِ، فهَذِهِ الآيَةُ جاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بمَفْهومِها العامّ، فَحَسُنَ أَنْ يَكونَ النَّظْمُ عامًّا، بخِلافِ آيَةِ المائِدَةِ فهِيَ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عليه السلام، فناسَبَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ المَظْروفِ عَلى الظَّرْفِ، تَنْبيهًا عَلى خصوصِيَّةٍ لذَلِكَ المَظْروفِ، يُحَدِّدُهَا السِّيَاقُ، فكُلُّ نَظْمٍ بَليغٍ لا يَسُدُّ مَسَدَّهُ نَظْمٌ آخَرُ، والمُفاضَلَةُ بَيْنَ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ في بابِ البَلاغَةِ، لَيْسَ مِنَ البَلاغَةِ في شَيْءٍ.

بلاغة العدول إلى الفصل:

فُصِلَت جُمْلَةُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ مِنَ السَّابِقَةِ؛ لأَنَّها تَقْريرٌ لها، فالسَّابِقةُ أَسْنَدَتْ مِلْكَ جَميعِ المَوْجوداتِ لِلَّهِ تَعالى، وهَذا أَمْرٌ يَعْتَقِدُهُ العَرَبُ، لَكِنَّهُم يَعْتَقِدونَ أَنَّ آلِهَتَهُم تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَفاعَةً خاصَّةً، فقالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: 18]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، فأَبْطَلَت هَذِهِ الجُمْلَةُ ذَلِك الاعْتِقادَ[1].

بـيـان الـفـصـل تـقـريـر الجـمـلـة السّابقة بإبطال معتقد الكافرين بشفاعة آلهتهم لهم

بديع الابتداء بالنفي على صيغة الاستفهام:

ابْتَدَأَتْ جملة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ باسْمِ الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ مَعْنى الإنْكارِ والنَّفْيِ[2]، ووُقوعُ النَّفْيِ بصيغَةِ الاسْتِفْهامِ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ نَفْيًا صَريحًا؛ لاقْتِضائِهِ مُوافَقَةَ المُخاطَبِ عَلَيْهِ[3]، ومن المعلوم أن الاستفهام أقوى من النّفي.

مـعـنـى الاسـتـفـهـام الإنكار، والنّفي بـه أبـلـغ من النّفي الصّريح، وأقوى

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ ﴿مَن ذَا﴾ وبيانُ متشابه ورودها اللفظي:

وَاخْتَلَفَ النُّحاةُ في إعْرابِ ﴿ذَا﴾، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها خَبَرًا لاسْمِ الاسْتِفْهامِ، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها زائِدَةً، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها بمَعْنى الَّذي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/21.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/11.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.

في اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ تحقُّقُ التَّنْبيهِ الذِّهْنِيِّ، والتَّحْفيزِ الفِكْرِيِّ، إلى أمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ

ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها مَعَ مَنْ بمَنْزِلَةِ اسْمٍ واحِدٍ تَرَكَّبا كمَاذَا[1]، وهَذا الوَجْهُ هُوَ الوَجْهُ، لِمَا فيهِ مِنْ صِحَّةِ مَعْنًى، وفَصاحَةِ أُسْلُوبٍ، ودِقَّةِ مَسْلَكٍ، وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ في أَرْبَعَةِ مَواضِعَ، وهِيَ:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: 17]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: 11]، ومَوْضِعُ آيَةِ الكُرْسِي.

والمُلاحَظُ أَنَّ تَرْكيبَ ﴿مَن ذَا﴾ وَرَدَ في سِياقَيْنِ: السِّياقُ الأَوَّلُ تَضَمَّنَ التَّحْفيزَ إلى الصَّدَقَةِ، كما هُوَ في آيَتَي البَقَرَةِ والحَديدِ، والسِّياقُ الثَّاني كانَ بمَعْنى الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ النَّفْيَ والإِنْكارَ، كما في آيَةِ الكُرْسِيِّ والأَحْزابِ، وفي اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ نَلْحَظُ التَّنْبيهَ الذِّهْنِيَّ، والتَّحْفيزَ الفِكْرِيَّ، إلى أمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ، فاجْتَمَعَتْ وَظيفَةُ اسْمِ الاسْتِفْهامِ في تَطَلُّبِ الجَوابِ، مَعَ وَظيفَةِ اسْمِ الإِشارَةِ في إطْلاقِ الفِكْرِ لِمُشارٍ ذِهْنِيٍّ في تَرْكيبٍ واحِدٍ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ؛ لتَوْليدِ تَرْكيبٍ بَديعٍ يَسْتَثيرُ الفِكْرَ، ويَنْشَطُ بِهِ العَقْلُ.

جمالُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ليُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ فَيَقَعَ النَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ في ﴿يَشْفَعُ﴾ ليُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ، فيَتَصَوَّرُها المُخاطَبُ، فيَقَعُ الاسْتِنْكارُ والنَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ تَناسُبًا بَديعًا مَعَ دَلالَةِ الإِشارَةِ في تَرْكيبِ ﴿مَن ذَا﴾، فتَتَوَجَّهُ الإِشارَةُ إلى تِلْكَ الشَّفاعَةِ المُتَصَوَّرَةِ في الأَذْهانِ، فيَنْفيها المُخاطَبُ، وهُوَ مَقْصودُ الجُمْلَةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611، والسمين، الدر المصون: 2/508.

فائدة الاستثناء بـ (إلا):

قـصـدُ التّـعـبير بـالاسـتـثـنـاء تَعْليق الشَّفاعَةِ عَلى إذْنِ الرَّحْمَنِ

وَأَفادَ الاسْتِثْناءُ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ تَعْليقَ الشَّفاعَةِ عَلى إذْنِ الرَّحْمَنِ، فالشَّفاعَةُ المَنْفِيَّةُ هِيَ الشَّفاعَةُ الَّتي يَنْتَفِعُ مِنْها المُشْرِكون، وغَيْرُ المَقْبولين عِنْدَ اللَّهِ تَعالى، والشَّفاعَةُ المُثْبَتَةُ هِيَ الشَّفاعَةُ المُتَوَقِّفَةُ عَلى إذْنِ المَوْلى سُبْحانَهُ، وهُوَ ما يُوَضِّحُ مَعْنى نَفْيِ الشَّفاعَةِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، وهُوَ ما يُؤَكِّدُ تَرابُطَ الجُمَلِ واتِّساقَ بَعْضِها بِبَعْضٍ.

براعة التّعبير بقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

بـيـان الـبـلاغـة استغراق التعبير الزَّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُناسِبُ لدِقَّة النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عَلى أَقْوالٍ كَثيرَةٍ، مِنْ مِثْلِ السّابِقِ واللّاحِقِ، أَوِ العَكْسِ، أَوِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، أَوْ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ وبَعْدَه، أَو الشَّرِّ والخَيْرِ[1]، والصَّحيحُ أَنَّ الكُلَّ مُحْتَمَلٌ[2]، ونُضيفُ عَلى تِلْكَ الأَقْوالِ؛ أَنَّ المَقْصودَ بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَقَعُ الآنَ، وهُوَ الزَّمَنُ الحاضِرُ، والمَقْصودُ بـ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، الماضي والمُسْتَقْبَلُ، باسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ، فيَكونُ التَّعْبيرُ قَدْ شَمِلَ الزَّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُناسِبُ لدِقَّةِ النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ.

بلاغة الكناية في الجملة:

وجـه الـكـنـايـة شُمولُ التَّعْبيرِ جَميعَ المُحْتَمَلاتِ الـذِّهْـنـيّـةِ، وإحـاطَـةِ عِلْمِهِ تَـعـالى بِـسـائِـرِ المَخْلوقاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ

مِنْ بَلاغَةِ النَّظْمِ احتمال قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لجَميع المُحْتَمَلاتِ الذِّهْنِيّةِ المَقْبُولَةِ في أَلْفاظِ العِبارَةِ، وهُوَ المُناسِبُ لسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، قال أَبو حَيَّانَ: "إنَّ هَذا كِنايَةٌ عَنْ إحاطَةِ عِلْمِهِ تَعالى بِسائِرِ المَخْلوقاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ، وكَنّى بِهاتَيْنِ الجِهَتَيْنِ عَنْ سائِرِ جِهاتِ مَنْ أَحاطَ عِلْمُهُ بِهِ . . فالمَعْنى أَنَّهُ تَعالى عالِمٌ بِسائِرِ أَحْوالِ المَخْلوقاتِ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فلا يُرادُ بما بَيْنَ الأَيْدي ولا بما خَلْفَهُمْ شَيْءٌ مُعَيَّنٌ"[3]. وما اسْتَظْهَرَه أَبو حَيَّان هَدَفٌ بارِعٌ أَصابَ عَيْنَ الحَقيقَةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/396، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/12.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/10.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611-612.

بديع التّقابل بين جُمْلَتَيْ: إثبات العلم، ونفي الإحاطة به:

التّقابُلُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ إثباتًا ونَفْيًا، نَزَّلَهُما مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ

جُمْلَةُ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ عُطِفَتْ عَلى السَّابِقَةِ؛ "لأَنَّ مَجْموعَهُما يَدُلُّ عَلى تَفَرُّدِهِ بالعِلْمِ الذَّاتِيِّ التَّامِّ، الدَّالِّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى"[1]، فاشْتَرَكَتِ الجُمْلَتانِ في إثْباتِ عِلْمِ اللَّهِ الشَّامِلِ، حَيْثُ أَثْبَتَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ شُمولَ عِلْمِهِ لكُلِّ شَيْءٍ، ونَفَتِ اللَّاحِقَةُ إحاطَةَ المَخْلوقينَ بشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ، وإثْباتُ عِلْمِهِ في الأُولى، مَعَ نَفْيِ إحاطَتِهِم في الثَّانِيَةِ، إثْباتٌ لإحاطَتِهِ بعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ دَلالَةِ التَّقابُلِ الضِّدِّيِّ، وحَصَلَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنْ نُزِّلَتا مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ، وهُوَ المَفْهومُ مِنْ سؤالِ صاحِبِ الكَشَّافِ حينَ قالَ: "فإنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَرَتَّبَتِ الجُمَلُ في آيَةِ الكُرْسِيِّ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ؟".

وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ، حَيْثُ تُعامَلُ الجُمْلَتانِ أَوِ الصِّفَتانِ المُتَقابِلَتانِ مُعامَلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ أَوِ الصِّفَةِ الوَاحِدَةِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: 112]، فعومِلَتْ صِفَةُ: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مُعامَلَةَ الصِّفَةِ الواحِدَةِ، وهَذا مِنْ بَديعِ أُسْلوبِ القُرْآنِ في التَّعامُلِ مَعَ المُتَقابِلاتِ، حَيْثُ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الواحِدِ.

وجه التّقابل بين الجملتين أنّ مَجْموعهما أَفاد البَيانَ والتَّعْليلَ وهُوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ

ووِفاقَ ما تقرَّر يكون مَجموعُ الجُمْلَتَيْنِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، هُوَ ما يُبَيِّنُ سَبَبَ فَصْلِهِما عَنْ جُمْلَةِ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فالفَصْلُ لبَيانِ جَهْلِ مَنْ يَزْعُمُ وُجودَ شافِعين، وتَعْليلُ ذَلِكَ بإحاطَةِ عِلْمِهِ بكُلِّ شَيْءٍ، فمَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ أَفاد البَيانَ والتَّعْليلَ وهُوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/300-301، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

دِقَّةُ التَّعْبيرِ بلفظ الإحاطَةِ:

انْتُقِيَتْ في الآيَةِ كَلِمَةُ الإحاطَةِ، لِما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنًى يَتَّسِقُ مَع مَقْصودِ الكَلامِ، فالإحاطَةُ تَدُلُّ عَلى الإحْرازِ والبُلوغِ، والتَّمَكُّنِ والحِفْظِ، والشُّمولِ، وهَذِهِ المَعاني هِيَ ما ازدانَتْ به اللَّفْظَةُ دونَ سِواها مِنَ الأَلفاظِ، فإذا نُفِيَتِ الإحاطَةُ، نُفِيَ مَعَها الإحْرازُ والبُلوغُ والتَّمَكُّنُ والحِفْظُ والشُّمولُ، وإذا ثَبَتَتْ ثَبَتَتْ مَعَها هَذِهِ المَعاني، وهِيَ ثابِتَةٌ في حَقِّ اللَّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، فَنَفْيُ الإحاطَةِ أَشَدُّ مِنْ نَفْيِ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ، كما أَنَّ إثْباتَها أَبْلَغُ وأَمْدَحُ، لما يَلْزَمُ عَنْ النَّفْيِ والإثْباتِ.

تَـدُلُّ الإحـاطَـةُ عَـلى الإحْـرازِ والبُلوغِ والتَّمَكُّنِ والـحِـفْـظِ والـشُّـمـولِ، فَنَفْيُها أَشَدُّ، وإثْباتُها أَبْلَغُ

دَلالَةُ العُمومِ في لَفْظِ ﴿بِشَيْءٍ﴾:

دلّ لَفْظُ شَيْءٍ عَلى العُمومِ، مِنْ ثَلاثَةِ أُمورٍ؛ هي: التَّنْكيرُ والسِّياقُ ودَلالَةُ اللَّفْظِ، فهُوَ نَكِرَةٌ في سِياقِ نَفْيٍ، ودَلّ هَذا اللَّفْظُ عَلى المَوْجودِ والمَعْدومِ[1]، وهَذا يَقْتَضي العُمومَ، وهُوَ المُناسِبُ لنَفْيِ الإحاطَةِ، فَنَفَتِ الآيَةُ إحاطَتَهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ، صَغيرًا أَوْ كَبيرًا، مَوْجودًا أَوْ مَعْدومًا، قَليلًا أَوْ كَثيرًا، وهَذا يَزيدُ مِنْ بَيانِ جَهْلِهِم، وتَمَكُّنِ عِلْمِه سُبْحانَهُ وتَعالى، وإحاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

اكتُسِبَ العُمومُ في لَـفْـظِ شَيْءٍ مِـنَ الـتَّـنْـكـيرِ، والـسِّـيـاقِ، واللَّفْظِ، وأَفاد حُسْنَ الاتِّساقِ والبَيانِ

بلاغة الفصل في جملة سعة الكرسيّ:

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ هذه الجُمْلَةُ المَفْصولَةُ الخامِسَةُ في الآيَةِ، وهِيَ "تَقْريرٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّهَا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالى وكِبْريائِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وبَيانِ عَظَمَةِ مَخْلوقاتِهِ المُسْتَلْزِمَةِ عَظَمَةَ شَأْنِه"[2]، ولِبَيانِ سَعَةِ مُلْكِهِ وسُلْطانِه، ولبَيانِ عِلْمِه الغُيوبَ والمُشاهَداتِ وإحاطَتِهِ بِها.

وجـه الـفـصـل تَـقْـريـرُ مَـا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّهَا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالى

(1) الراغب، المفردات: (شيء).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/23.

دِقَّةُ اخْتِيارِ الأَلْفاظِ واتِّساقِها:

اتِّساقُ الأَلْفاظِ في الدَّلالَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، سَعَةٌ مِن بَعْدِها سَعَةٌ

اشْتَملَ قَوله تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عَلى أَرْبَعَةِ أَلفاظٍ كُلُّها تَدُلُّ عَلى السَّعَةِ، أَمَّا لَفْظُ (وَسِعَ) فَمِنَ اللُّغَةِ، فالواسِعُ: هُوَ المُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ[1]، وأَمَّا الكُرسيُّ فَمِن سَعَةِ الأَقْوالِ التي قيلَتْ فيه.

وأَمَّا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فَمِنَ المُشاهَدَةِ العِيانِيَّةِ، فاجْتَمَعَ في هَذِهِ الجُمْلَةِ دَليلُ اللُّغَةِ والعِلْمِ والمُشاهَدَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، وهَذا مِنْ أَقْوى الأَدِلَّةِ عَلى سَعَةِ هَذِهِ الجُمْلَةِ لاتِّساعِها جَميعَ هَذِهِ الدَّلالاتِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ سِرِّ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الكُرْسِيّ، الَّذي هُوَ اسْمُ الآيَةِ، وهُوَ يُشيرُ إلى عِلَّةِ تَسْمِيَةِ أَعْظَمِ آيَةٍ في القُرْآنِ الكَريمِ بِهَذا الاسْمِ؛ لتَمَكُّنِها تَمَكُّنَ الكُرْسِيّ، ولِعَظَمَتِها عَظَمَةَ العَرْشِ، وَلسَعَةِ ما فيها مِنَ العِلْمِ الصَّادِرِ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، ولسُلطانِها في النُّفوسِ، وهِيَ إشارَةٌ بَديعَةٌ للتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللَّهِ وكَلامِهِ، في اختياره لأَعْظَمِ آيَةٍ اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلوقاتِه.

بلاغة المجاز في عبارة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾:

التَّعبير كناية عن سعة الملك، والعلم، والإحاطة، أو استعارة تصريحية عنها

وقَوله تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كناية عن سعة الملك، والعلم، وعِظَم القدرة، وكمال حياطة الخلق، وهو المناسب لنسق الآية الكريمة، وهو تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس[2]. وتحتمل العبارةُ الاستعارةَ التصريحيةَ؛ لكون الكلمة مجازًا عن علمه تعالى، أو ملكه وتصوير صحيح لعظمته، حذف المشبه وهو العلم والقدرة والعظمة وما يترتب على الجلوس فوق كرسي الملك من معاني الأبهة والإحاطة الجامعة[3].

قصديّة التَّعْبير بالأَوْدِ دونَ سِواهُ مِنَ الأَلْفاظِ:

التَّعْبيرُ بالأَوْدِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (وسع).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/941
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/383

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ تَعْبيرٌ غَريبٌ قَليلُ الاسْتِعْمالِ، وهُوَ مِنْ أَفْرادِ القُرْآن، فَلَمْ يُسْتَعْمَلْ إلَّا في هَذا المَوْضِعِ، والمُفَسِّرون يُفَسِّرُونَه بالثِّقَلِ والمَشَقَّةِ، فإنْ قيلَ: لماذا آثَرَتِ الآيَةُ التَّعْبيرَ بِهِ دونَ ما هُوَ أَوْضَحُ وأَكْثَرُ اسْتِعْمالًا؟ فيُقالُ: إنَّ الأَوْدَ في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى المَيْلِ والانْحِناءِ[1]، وَسَبَبُه الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، ويَظْهرُ من استِعْمالِ العَرَبِ أَنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ؛ فمَزَجَ هَذا اللَّفْظُ مَعْنَيَيْن، وهُما المَيْلُ والثِّقَلُ الشَّديدُ، أَي: السَّبَبُ ونَتيجَتُهُ، وهَذا سِرُّ اسْتِعْمَالِه في هَذا السِّياقِ، فالأَوْدُ لَيْسَ أَيَّ مَيْلٍ، كما أَنَّهُ لَيْسَ أَيَّ ثِقَلٍ، وإنَّما هُوَ مَيْلٌ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، ومعْناهُ أَنَّ اللَّه لا يَؤودُهُ الأَمْرُ العَظيمُ، فما بالُك بمَا هُوَ دونَهُ، فهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَدْنى بالأَعْلى.

التَّنْبيهُ عَلى نَفْيِ الأَدْنَى بالأَعْلى، فالأَوْدُ هُوَ المَيْلُ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ

وجه اخْتِصاصِ لفظ الحِفْظِ بالذِّكْرِ:

قَد يَسْأَلُ سائِلٌ عَنْ سِرِّ اخْتِصاصِ الجُمْلَةِ بلَفْظِ الحِفْظِ، مَعَ أَنَّ ما يَقْتَضيهِ السِّياقُ ذِكْرُ الحَمْلِ؛ لأَنَّ الأَوْدَ مَعْناه: مَيْلٌ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، وهَذا المَعْنى يُناسِبُ الحَمْلَ لا الحِفْظَ؟

اخْتِصاصُ الحِفْظِ بالذِّكْرِ؛ لشُموله مَعْنى الحَمْلِ، بخِلافِ العَكْسِ، وهَذا مِنَ التَّنْبيهِ عَلى المَفْهومِ الأَخَصِّ بالأَعَمِّ

والجَوابُ أَنَّ الحِفْظَ مُتَراخٍ عَنِ الحَمْلِ، فَقَدْ يُحْمَلُ الشَّيْءُ ولا يُحْفَظُ، بخِلافِ الحِفْظِ فَيَلْزَمُ عَنْه الحَمْلُ والمِلْكُ والتَّدْبيرُ والتَّصَرُّفُ، فهَذِه معانٍ لازِمَةٌ للَفْظِ الحِفْظِ، وما حُفِظَ فهُوَ مَحْمولٌ لُزومًا، فلمَّا ذَكَرَ الحِفْظَ لَزِمَ عَنْهُ تِلْكَ المَعاني ومِنْها الحَمْلُ، وهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَخَصِّ بالأَعَمِّ، فاجْتَمَعَ في الجُمْلَةِ لَفْظان، كلٌّ مِنْهُما دلَّ عَلى مَعْنًى آخَرَ يُفْهَمُ التزامًا، وهَذا مِنَ الإيجازِ اللُّغَوِيِّ البَليغِ في هَذِهِ الجُمْلَةِ، الَّذي لا يَؤُودُ القُرْآنَ الإتْيانُ بمِثْلِه.

علّة تثنية الضمير في ﴿حِفْظُهُمَا﴾:

ولَمْ يَقُلْ: (حِفْظها) بضَمير جَماعَةِ مَا لا يَعْقِلُ، وعدل إلى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

التثنية: ﴿حِفْظُهُمَا﴾؛ لتخصيصه السماوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ بوصفهما المُشاهَدين للإنْسانِ الَّذي يَراهُما ويُوافِقُ عَلى إمْساكِهما وعَدَمِ إزالَتِهما؛ ليَكونَ ذَلِكَ أَقْطَعَ في طَريقِ الاسْتِدْلالِ، وأَقْوى في قِيامِ الحُجَّةِ عَلَيْه[1].

تـخـصـيـص الـسـمـاوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ أَقْطَعُ في طَريقِ الاسْـتِـدْلالِ، وأَقْـوى في قِيامِ الحُجَّةِ

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ:

لَمَّا ابْتَدَأَت الآيَةُ بوَصْفِ اللَّهِ تَعالى بالحَيِّ القَيُّوم، وبَعْد إيرادِ تِلْكَ الجُمَلِ المُفْصِحَةِ عَن جَلالَةِ عَظَمَتِه، وواسِعِ عِلْمِه، وكَبيرِ مِلْكِه، وفَضْلِ تَدْبيرِه، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ بالعَلِيِّ العَظيم، مِنْ بابِ رَدِّ الفاصِلَة عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ، ففيهَا فَنُّ التَّصْدير، فَمَبْدَأُها العَظَمَةُ، وخِتامُها العَظَمَةُ، "وقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِما بُدِئَت بِه، غَيْرَ أَنَّ بَدْءَها بالعَظَمَةِ - كَما قالَ الحرالِيُّ - كانَ باسْمِ اللَّه إلاحَةً، وخَتْمَها كانَ بذَلِكَ إفْصاحًا، لما ذُكِرَ مِنْ أَنَّ الإبْداءَ مِنْ وَراءِ حِجابٍ، والإعادَةَ بغَيْرِ حِجابٍ، كذَلِك تَنَزُّلُ القُرْآنِ، مَبْدَأُ الخِطابِ إلاحَةٌ، وخاتِمَتُهُ إفْصاحٌ؛ ليَتَطابَقَ الوَحْيُ والكَوْنُ تَطابُقَ قائِمٍ ومَقامٍ"[2].

رَدُّ الفاصِلَةِ عَلى المَطْلِعِ، تَقْريرًا لِـصِـفَـةِ الـلَّـهِ العَظيمِ، إلاحَةً وإفْصاحًا

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّنَة والنَّوْم:

السِّنَةُ تَكونُ في الرَّأْسِ، فإذا خالَطَتِ القَلْبَ وأَثْقَلَتْه فهُوَ النَّوْمُ[3]، ولابْنِ عَطِيَّةَ تَفْريقٌ لَطيفٌ حيث قال: "السِّنَةُ بَدْءُ النُّعاس، وهُو فُتورٌ يَعْتَري الإنْسانَ وترنيقٌ في عَيْنَيْه، ولَيْس يَفْقِدُ مَعَهُ كُلَّ ذِهْنِه، والنَّوْمُ هُو المُسْتَثْقَلُ الَّذي يَزولُ مَعَهُ الذِّهْنُ"[4]، "فالنَّوْمُ شاغِلُ المُدَبِّرِ عَنْ التَّدْبيرِ، والنُّعاسُ مانِعُ المُقَدِّرِ عَنِ التَّقْديرِ بوَسَنِه"[5]، والسنة لا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/729.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/37.
(3) ابن السكيت، الألفاظ، ص: 468، وقول الضحاك في جامع البيان: 5/391، والسمرقندي، بحر العلوم: 1/167.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/340.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/393.

يفقد معها العقل، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر والمراد: أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما[1]، والرَّبْطُ بَيْنَ بَدْءِ النُّعاسِ والنَّوْمِ باعْتِبارِ الغالِبِ، لا باعْتِبارِ اللَّازِمِ، فقَد يُصيبُ الإِنْسانَ النُّعاسُ ولا يَنامُ، وقد يَنامُ مِنْ غَيْرِ نُعاسٍ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/311.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»